الرواية البوليسية في الأدب العربي

د.أمير تاج السر - الدوحة
كاتب وروائي

الرواية البوليسية لن تكون من بين أجناس الكتابة العربية الشائعة في يوم من الأيام، وأي محاولة لكتابتها بأدوات فقيرة ستكون "مغامرة" تبعد القارئ.

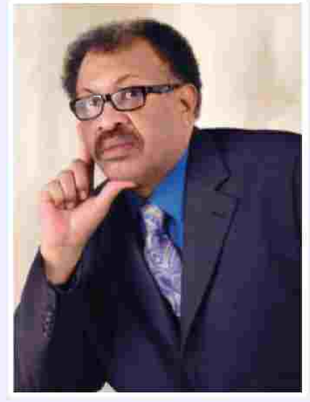

لعلنا جميعا نلاحظ أن الأدب العربي بأكمله يكاد يخلو مما اصطلح على تسميتها الرواية البوليسية، أي تلك التي تتحدث عن جريمة غامضة حدثت، وتجري محاولات حل غموضها طوال النص، أو تلك القائمة على صراع استخباراتي بين دول متعددة، يعمل عليه الكاتب حتى النهاية..

ما يضع القارئ تحت وطأة نص تشويقي، ومثير، لا يستطيع إلا أن يتتبع وقائعه، يلهث خلف الغموض محاولا استنتاج النهاية، والتي غالبا ما تكون نهاية أخرى غير التي يضعها بنفسه، ذلك أن الكاتب يعمد إلى التضليل، ويضع النهاية غير المتوقعة.

الأدب البوليسي، كما هو معروف، من أكثر الآداب شيوعا في الغرب، وقد نشأ مبكرا، ربما في القرن السابع عشر أو الثامن عشر، وبالتالي أصبح معتمدا في ذهن القراءة أكثر من كل الآداب الأخرى.

وقد ظهرت فيما بعد شخصيات لمحققين اشتهروا بشدة، حتى ليكادوا أن يصبحوا حقيقيين مثل هركيول بوارو في روايات البريطانية أجاثا كريستي، والمفتش جاليمار في الروايات الفرنسية التي يقوم ببطولتها اللص لوبين. وتجسدت كثير من تلك الشخصيات في ملامح تبدو شبيهة بملامحها المرسومة في الكتب، حين تحولت الروايات إلى أفلام سينمائية.

وفي السنوات الأخيرة، تطور ذلك الأدب بشدة، واكتسب شعبية أكثر، وظهر نجوم لمثل هذه الروايات، مثل الأميركي استيفن كنج الذي تتحدى مبيعات كتبه كل مبيعات الكتب الأدبية الأخرى، وله قراء لا يمكن لأي كاتب أدبي أن يظفر بقليل منهم.

إذا ألقينا نظرة سريعة على الأدب العربي، وباستثناء الكتب التي تخاطب الأطفال والمراهقين، وكتبت بأساليب غاية في البساطة، وتلك التي كتبت للبالغين عن الجاسوسية مثل ما كتبه المصري صالح مرسي، لن نجد رواية بوليسية كاملة.

ربما بعض اللمحات هنا وهناك، وأجزاء قليلة من الغموض الذي يصنف بوليسيا، ولا شيء آخر، لا يوجد محقق سري يطلع بحل لغز معقد، ولا لص ظريف، يسرق من أغنياء الشعوب لصالح فقرائهم، ولا مغامرة كبرى، تمثل مطاردة، يرصدها نص في الشوارع.

في رأيي الشخصي وحين أتحدث عن خلو الأدب العربي من هذه الكتابات، رغم قدمها في الغرب، أجد أن الأمر منطقي جدا ولا يدعو للغرابة، باعتبار أن اختلاف المجتمعات في بنائها وحركة شعوبها وعاداتهم وتراثهم بالضرورة يؤثر على الأدب كثيرا، ولطالما وصف الأدب بأنه مرآة للشعوب، يعكسها بألوانها التي عليها.

نحن في بلادنا، مثل كل شعوب الأرض، نمتلك خامات ربما يصلح بعضها لكتابة الرواية البوليسية، لكننا لا نملك أدوات كتابتها، نملك شيئا من الجريمة واللصوصية، والبحث والتحري، لكننا لا نملك الخيوط التي تحول ذلك إلى رواية، ولطالما حدثت عندنا جرائم شبيهة بالتي تحدث في الغرب، وتوحي بكتابتها، لكن تقنيات الكتابة لا تلائم مجتمعنا أبدا، ولو كتبت لربما لن تجد قارئا يصدقها، وبالتالي لن تكتب.

أيضا مسألة الغطرسة الكتابية التي تنتشر لدى الكتاب العرب، من ناحية تنميق اللغة، واختراع التراكيب الغريبة في اللغة العربية، فالأدب البوليسي في معظمه، إن لم يكن كله، أدب تسلية ليس إلا، نوع من الكتابة يحمله القارئ إلى مخدعه ليتسلى قليلا قبل النوم، ولا يحب الكاتب العربي أن يشقى في رواية، تتحول إلى مادة ترفيه في النهاية.

ما نكتبه يحمل أفكارا تلائم مجتمعنا، وهي أفكار في الغالب تؤدي في النهاية إلى نص بعيد تماما عن التسلية، ويحتاج في قراءته إلى مجهود شبيه بالذي بذله الكاتب نفسه.

آتي إلى مسألة المخيلة البوليسية التي يمتلكها الكاتب الغربي، الذي نشأ في مجتمع مكتنز بالأدوات الفاعلة، أو التي تنشط تلك المخيلة، هو يرى الجرائم المعقدة التي ترتكب، يشاهد المتحرين وهم ينشطون من حوله، وربما يتغلغل في علب الليل وعوالم الجريمة المتعددة، الموجودة بكثرة من أجل أن ينشط خياله ويكتب.

توجد عصابات المافيا المحفزة للكتابة عنها، عصابات الخطف والمخدرات والرقيق الأبيض، توجد عناصر الخلل كلها التي تأتي بأدوات الكتابة من دون أي عناء، وفي هذا العصر، عصر التكنولوجيا الحديثة، يمكن استخدام ما يخطر وما لا يخطر على البال من أجل كتابة رواية.

وخلاصة الأمر أستطيع أن أقول إنه توجد جريمة منظمة في الواقع، وما على الكاتب إلا أن ينقلها إلى الورق، ليصنع كتابا ومن ثم يصنع قارئا هو في الأصل موجود في كل تلك الأحداث، لكنه مع ذلك لا يستطيع مقاومة قراءتها كتابا.

من أنواع الرواية البوليسية الرائجة أيضا، تلك التي تكتب في السجون أو عن السجون، تلك التي تتابع متهما بريئا، أدين في جريمة لم يرتكبها، وتذهب به إلى حبل المشنقة، أو تبعده عن الحبل في آخر لحظة.

هذا النوع يبدو شديد الجاذبية بدليل وجود روايات عديدة تناولته، وأعلى ذلك بمسحة التعاطف التي يبديها القارئ مع الشخص المدان، خاصة إذا اشتم رائحة براءته قبل أن ينهي النص..

وأذكر رواية استيفن كنج المسماة "الميل الأخضر"، تلك التي تتحدث عن رجل من السود، يملك قوى خارقة في شفاء الآخرين، وأدين بقتل طفلتين، وذهب إلى الميل الأخضر، وهو الطريق المؤدي للمقصلة، وقد كسب ذلك المدان تعاطف سجانيه قبل أن يكسب تعاطف القراء كلهم، وأيضا تعاطف المشاهدين في الفيلم الذي أنتج عن تلك الرواية، ولا أستطيع أن أقول إن رواية استيفن هذه رواية تسلية فقط، فقد صيغت ببراعة، وجسدت ألما إنسانيا عميقا يحسه القارئ طوال قراءته لها.

وأقول إن مثل هذا البطل قد يوجد في مجتمعنا بنفس المواصفات، لكن لا أدوات تكتبه، لأن الأدوات التي أدانته عندنا في غاية البساطة، والسجن الذي دخله لا يشبه سجنه الأميركي، وأيضا المخيلة التي ستكتبه ليست معدة لكتابته على الإطلاق.

أخلص إلى أن جنس الرواية البوليسية لن يكون من بين أجناس الكتابة العربية الشائعة في أي يوم من الأيام، وأي محاولة لكتابة رواية بوليسية بتلك الأدوات الفقيرة، والمخيلة غير المعدة جيدا، ستكون ضربا من المغامرة التي تبعد القارئ عن القراءة العربية، أكثر من ما تقربه إليها.

قوة التخيل في صناعة الواقع

قد يستغرب البعض عندما يقول العلم لهم إن العقل لا يميز بين الحقيقة والخيال.. نعم إن العقل (أو الدماغ) كأداة لاستقبال المعلومات وتحويلها إلى صورة ذهنية لا يفرق بين ما يُستقبل ويُرى بالعين وبين ما يُستقبل ويُرى بالمخيلة (ما يتخيله الإنسان وعيناه مغلقتان).

د. وليد فتيحي

إن علماء النفس الإكلينيكي والتجريبي أثبتوا بما لا يقبل الشك أن الجهاز العصبي والدماغ لا يستطيعان التفرقة بين الحقيقة والخيال، وهذا بناء على مئات التجارب المختلفة، وسأسوق لكم من التجارب ما تم إعادته عشرات المرات، وفي كل مرة تكون النتائج متشابهة.

في إحدى هذه الدراسات أتوا بلاعبي سلة وأعطوا كل واحد عدداً معيناً من الرميات الحرة، وتم التحديد وبدقة نسبة التسديد الناجح لكل لاعب، وتم إعادة التمرين مرات عديدة للتأكد من دقة هذه النسبة لكل لاعب، ثم وبطريق عشوائية تم تقسيم اللاعبين إلى ثلاث مجموعات..

المجموعة الأولى: جعلوها تتدرب كل يوم لعدة ساعات على الرميات الحرة.

المجموعة الثانية: لم تتدرب أبدا.

المجموعة الثالثة: طُلب منهم الجلوس على المنصة وأن يتخيلوا أنهم يتدربون على الرميات الحرة بخيالهم لعدة ساعات في اليوم، وهي نفس الفترة الزمنية للمجموعة الأولى.

وبعد الانتهاء من التمارين في الثلاث مجموعات، وجدوا أن المجموعة الأولى التي تدربت فعلا، تحسن أداؤها بشكل ملحوظ، أما المجموعة الثانية التي لم تتدرب على الإطلاق فوجدوا أنه ليس لديها أي تحسن.

والآن سؤالنا: كيف تظن أداء المجموعة الثالثة التي كانت تتدرب بخيالها فقط، هل تعتقد أن أداءها تحسن ولو قليلا؟ إن الإجابة قد تذهل كل من لا يعرفها.. لقد وُجد في هذه التجربة وفي كل التجارب المشابهة أن مستوى المجموعة الثالثة تحسن تقريبا بنفس نسبة المجموعة التي تدربت فعلا.

كيف حدث ذلك؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال نسوق لكم تجربة أخرى..

في أولمبياد عام 1980م، قام الفريق الروسي باستخدام طريقة التدريب هذه، فقسم الفريق عشوائيا إلى أربع مجموعات..

المجموعة الأولى: 100% تدريب تقليدي جسدي.

المجموعة الثانية: 75% تدريب تقليدي جسدي، و25% تدريب عقلي أو تخيلي.

المجموعة الثالثة: 50% تدريب تقليدي جسدي، و50% تدريب عقلي أو تخيلي.

المجموعة الرابعة: 25% تدريب تقليدي جسدي، و75% تدريب عقلي أو تخيلي.

والنتيجة كانت أن المجموعة الرابعة حققت أكبر قدر من أوسمة الفوز.

مثال آخر مشهور، هو قصة الطيار الحربي جورج هول الذي وقع أسير حرب في فيتنام ووضع في صندوق مظلم لمدة سبعة أعوام، وفي كل يوم كان الطيار يتخيل نفسه يلعب الجولف ليمضي الوقت وكي لا يفقد عقله في هذا السجن المظلم، وبعد إنقاذه من الأسر بأسبوع واحد، شارك جورج هول في مسابقة عالمية للجولف وفاز بمرتبة متقدمة جدا.

ما الذي حدث في كل هذه التجارب والقصص؟

إن الدماغ البشري لم يميز بين التدريب الحقيقي والتدريب العقلي، والفائدة التي كان من المفترض أن يجنيها المتدرب العقلي بالطريقة التخيلية من خلال الممارسة الفعلية الجسدية، عوضها العقل ببناء الثقة الناتجة عن عدم إضاعة رمية واحدة في التدريب العقلي التخيلي، بينما في التدريب الحقيقي هناك رميات تضيع لأن هذا هو الشيء الطبيعي، ولهذا كان يقول أنشتاين إن القدرة على التخيل أهم بكثير من المعرفة أو المعلومة.

وبما أن الدماغ لا يميز بين ما هو حقيقي مرئي وبين ما تغذيه له من أفكار تخيلية، لهذا نجد أن الأشخاص الذين يستطيعون تغذية عقولهم دائما بالصور والأفكار الإيجابية يحققون من النجاحات والإنجازات ما لا يستطيع أن يحققه من يستسلم لواقع سلبي ويقضي معظم وقته وهو يفكر في السلبيات (العقل السلبي)، وهو الذي كثيرا ما يكون نتاج تربية قائمة على التفكير بطريقة سلبية ووضع نظارة سوداء، وهو ما يسمى بالبرمجة السلبية.

وفي كتابه ميزة السعادة (Happiness Advantage) يبين لنا الكاتب شون آكور أن المفهوم التقليدي: أنك إن عملت وثابرت واجتهدت ستنجز وتنجح، وهذا الإنجاز والنجاح سيجعلك سعيدا، مفهوم غير دقيق، حيث إن الأبحاث والدراسات الحديثة في علم النفس الإيجابي وجدت أن هذه المعادلة في الحقيقة مقلوبة، وهذه نتيجة دراسات في هارفارد ودراسات مساندة حول العالم بأكثر من 200 دراسة علمية على أكثر من 270 ألف شخص.

نعم هذه المعادلة مقلوبة، فالسعادة هي التي تغذي النجاح وليس النجاح يؤدي إلى السعادة..

بمعنى آخر عندما نكون سعداء إيجابيين في الحياة بشكل عام، ونبحث عن كل شيء إيجابي حولنا، فإن العقل البشري سيستقبل هذه الصور الإيجابية المتفائلة، مما يؤدي لإفراز كمية أعلى من هورمون الدوبامين الذي يقوم بوظيفتين، الأولى أنه يضفي السعادة على الإنسان وبالتالي النشاط والحيوية والطاقة والتطلع لمزيد من العمل، والثانية أن الدوبامين كذلك يجعل الإنسان أكثر ذكاء وأكثر قدرة على رؤية الفرص المتاحة واقتناصها، وبالتالي إنجازات أكبر مما يؤدي لسعادة أكبر وبدوره إفراز أكبر للدوبامين.

وبذلك فإن هذا الشخص الإيجابي ينتقل من إنجاز لإنجاز ومن نجاح إلى نجاح، ويكون دائما ممتلئا بالنشاط والحيوية والتفاؤل للحياة، وهذا عكس الشخص الذي لا يرى في الوجود حوله إلا السلبيات (العقل السلبي) المبرمج على السلبيات.

وهذا يفسر لنا كيف أن إنسانا في ظروف خارجية صعبة يستطيع أن يتجاوزها بتغذية عقله بالصور الإيجابية، كمن يقضي في السجن أعواما وهو لا يرى منه إلا نعيم الجنة كأنه يعيش فيها، وآخر يسكن القصور وهو بصحة وعافية وليس بمكدر لعيشه وينتهي الأمر به إلى الاكتئاب بل إلى الانتحار، لأن عقله لا يرى من العالم إلا ما يغذيه له صاحبه بغض النظر عن الواقع الذي يعيش فيه.

وهنا نقف لنفهم قول الإمام ابن تيمية عندما قال: ماذا يصنع بي أعدائي؟ جنتي وبستاني في صدري، أينما ذهبت فهما معي.. سجني خلوة ونفيي سياحة وقتلي شهادة. وبهذا نلمس قدرته على تحويل كل ظرف صعب وسلبي ليستقبله العقل بصورة إيجابية.

وقد حثنا ديننا على صناعة الإيجابية، فمن حديث "ما زلت عند حسن ظن عبدي بي" نتعلم أنه لا بد للإنسان أن يظن خيراً وأن يفكر بطريقة إيجابية، وكما في أمر الرؤية الصالحة الإيجابية التي طُلب منا أن نقصها حتى نكون مؤمنين بها، والرؤية السيئة التي يجب أن ننساها ولا نذكرها وأن نستعيذ بالله منها.

إن أعظم الإنجازات التي حققها أفراد، كانت تحت ظروف قاسية جعلت هذه الإنجازات تبدو مستحيلة في بداياتها، لكن كل هذه الإنجازات العظيمة بدأت هناك بعيدا عن العيون في داخل عقل الإنسان الذي يراها كأنها حقيقة ويغذي عقله بها كل يوم ليستقبلها العقل والدماغ كأنها واقع مُسلّم به، فيؤمن بها القلب إيمانا راسخا لا يتزعزع بأنها ستتحقق، وبدون مثل هذا الإيمان والعقل الإيحابي تبدو بحق كل الإنجازات العظيمة التي تحققت على أرض الواقع شبه مستحيلة.

يقولون: راقب أفكارك لأنها ستصبح أفعالا، وراقب أفعالك لأنها ستصبح عادات، وراقب عاداتك لأنها ستصبح طباعا، وراقب طباعك لأنها ستحدد مصيرك.

لمشاهدة الفيديو (ومحياي - قوة التخيل) إضغط هنا

أو إضغط هنا